

مقال

قطوف من شجرة الهجرة

أ.د. محمد محمود كالو – جامعة أديامان



لقد كان المشركون يلاحقون تحركات النبي صلى الله عليه وسلم، ويرصدونها بدقة، بل ويعذبون كل من يدخل في هذا الدين الجديد، وصمد الصحابة الكرام سنوات طويلة في مواجهة التعذيب والظلم والاضطهاد، حتى لقد فرَّ قسم منهم بدينه إلى بلاد الغربة، وبقي الباقون يواجهون محاولات فتنتهم عن دينهم، بمختلف وسائل القهر تارة، وبأساليب متنوعة من الإغراء تارة أخرى، حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم أنه هاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ؛ رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بيْنَ لَابَتَيْنِ». [رواه البخاري] وَهُما الحَرَّتَانِ.

ورؤيا الأنبياء أمر وحق، قال الله تعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات:102].

والله عز وجل هو الذي اختار يثرب لتكون داراً للهجرة النبوية، وفي الأثر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنْ أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، فَأَسْكِنِّي أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيْكَ»، فَأَسْكَنَهُ اللَّهُ الْمَدِينَةَ. [رواه الحاكم: 4261].

لكن طَمأنه ربه عز وجل بقوله: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} [القصص: 85]، أي: إن الذي فرض عليك القرآن هو الذي سيردُّك إلى مكة، وانظروا إلى اختيار لفظ التطمين لرسول الله: {لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ}، لماذا لَرَادُّكَ بهذا التعبير بالذات؟! كأنَّ الله تعالى يريد أن يذكِّر رسوله بقوله لأم موسى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ} [القصص: 7]، فكما رددتُ موسى إلى أمِّه، سأردُّك منتصرًا مكرمًا إلى مكة.

لذلك كل من زار الحرمين يؤكد أن الجو العام في مكة جو إجلال، بينما الجو العام في المدينة جو جمال، والوظيفة الأولى للمدينة المنورة في الهجرة هي تأمين ملاذ آمن للدعوة الإسلامية، فأيّ مكان يحول بينك وبين عبادة الله تعالى ينبغي أن تغادره، لأن علة وجودنا أن نعبد الله سبحانه، قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:56].

وكم من محنةٍ في طيّاتها منَحٌ، إذ فراق مكة في ظاهر الأمر كان صعباً وأليماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنه وقف على الحزوَرةِ وقال: (واللَّهِ إنَّك لخيرُ أرضِ اللَّهِ، وأحبُّ أرضِ اللَّهِ إلى اللَّه، ولولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ ما خرجتُ) [رواه الترمذي]، والحَزْوَرةُ: مرتفعٌ يُقابِلُ المسعَى.

لكن ماذا كانت النتيجة؟

إن الفراق كان بوتقة تنصهر فيها أسباب نهضة الإسلام وانتشاره وتوطده، فربَّ ضارَّة نافعة.

وكذلك هذه المحن العصيبة التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم لها ظاهر مُرٌّ وعذاب، وباطنه فيه الرحمة، فالظاهر الجلي مأساة تتقطع لها القلوب، ومحنة ما أظن أن تاريخنا الإسلامي بحلوه ومرّه سجل مثل هذه الظاهرة الأليمة، هذا هو الظاهر محنةٌ وبلاء، أما الباطن فإنما هو منحةٌ من منح الله عز وجل؛ ليستبين الصادق من الكاذب، ولكي تتمزَّق أقنعة النفاق، فيعرف المؤمن الصادق من غيره.

ومما ينبغي أن نقتطف من شجرة الهجرة، العبرة والعظة كي نطبقه، فالباري سبحانه يكلف عباده المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب، ولكن يأمرهم مع ذلك ألا يجعلوا معتمَدهم إلا على توفيق الله عز وجل ونصره، وألا يلجؤوا بقلوبهم وأفئدتهم إلا إلى الله سبحانه وتعالى، وهكذا لم يدخر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته أن جنَّدَ كل الوسائل المادية التي وضعها الله سبحانه وتعالى بين يديه لإنجاح عمله مهاجرًا من مكة إلى المدينة، ولم يدع مكانًا للحظوظ، فما من ثغرة إلا وقد غطاها، حيث هيأ رجلًا يأتيه بالأخبار، وهيأ رجلًا يمحو خلفه الآثار، وهيأ من يأتيه بالطعام والشراب، وهيأ خطةً تبعد عنه الشبه فاتجه جنوب مكة، واستقر في غار ثور ثلاثة أيام حتى يخف الطلب عنه، وهيأ دليلًا غلب فيه الخبرة على الولاء، وهكذا أخذ بالأسباب كاملة، طاعةً وتعبدًا، ولكنه لم يعتمد على الأسباب كما يفعل أهل الغرب، بل كان متوكلاً على الله تعالى، ولذلك لما وصلوا إليه، وأصبح أحدهم على بعد أمتار منه، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موطئ قدمه لرآنا"، قال الرسول لأبي بكر مطمئنًا له: "يا أبا بكر، مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"، ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 40]، وهكذا عناية الله تعالى تكون بعد أن يستنفذ العبد كل الأسباب التي جعلها الله متوفرة بين يديه، فإذا انقطعت هذه الأسباب ولم تكن فاعلة، وجد العبدُ النصر الإلهي، أما الاتكال على مجرد الاتصاف بالإسلام قولًا لا عملًا، وأن نطلب النصر دون إعداد ودون أخذ بالأسباب، فكل ذلك لا يحقق شيئًا من النصر المرتجى على الأعداء.



مقال

قطوف من شجرة الهجرة

أ.د. محمد محمود كالو – جامعة أديامان

لقد كانت الهجرة حدثاً فارقاً في تاريخ الإسلام، وكانت الرحلة مليئة بالأحداث المهمة والدالة على تأييد الله تعالى لنبيه ولدعوته.

فحينما تبعه سراقة بن مالك رَضيَ اللهُ عنه -وهو يومَئذٍ على الكُفرِ- قال أبو بَكرٍ: أُتينا يا رَسولَ الله، أي: أدرَكَنا هذا الفارسُ، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (لا تَحزَنْ، إنَّ اللهَ مَعَنا)، فدَعا عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فارتَطَمَت به فَرَسُه، أي: غاصَتْ به قَوائمُها إلى بَطنِها، في جَلَد، أي: في صُلبٍ منَ الأرْضِ وجَوفِها، فقال سُراقةُ: إنِّي أظُنُّكُما قدْ دَعَوتُما عَلَيَّ حتَّى ارتَطَمَت بي فَرَسي، فادْعُوَا لي بالخَلاصِ، وتَعهَّدَ لهما أنْ يرُدَّ عنهما مَن يَبحَثُ عنهما ويَطلُبُهما، فدَعا له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فنَجا.

وذكر ابن حجر في الإصابة خبر الوعد الكريم لسراقة، عن الحسن أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك: «كَيْفَ بِكَ إذا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟» فقال سُراقة في دهشة: كسرى بنُ هُرمُز؟ فقال: نعم كِسرى بنُ هُرمُز.

فطلب سراقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتابًا بذلك، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عامر بن فهيرة أن يكتب له كتابًا على رقعة من جلد، وعاد سراقة يبعد الناس عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول لهم: قد كفيتكم هذا الطريق، وهكذا انطلق في الصباح جاهدًا في قتلهما، وعاد في المساء يحرسهما، تحوَّلَ من طارد إلى حارس أمين يضلل من يطارد المهاجر العظيم.

والذي أدهش سراقة كيف بإنسان ملاحق، ومهدور دمه، حيث جعلوا مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يقول له: يا سراقة كَيْفَ بِكَ إذا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟ أي: سأصل يا سراقة إلى المدينة، وسأنشئ دولة، وسأؤسّسُ جيشاً، وسأحارب أكبر دولتيْن في العالم، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني الغنائم إلى هنا، ولك يا سراقة سوارَا كسرى.

ثمَّ دارَتِ الأيام وآلَ أمرُ المسلمين إلى الفاروقِ عمر رضيَ اللهُ عنه وهبَّتْ جيوش المسلمين في عهده المبارك على مملكة الفرس كما يهُبُّ الإعصار، فطفقَتْ تدُكُّ الحصون، وتهزِمُ الجيوشَ، وتهُزُّ العُروشَ، وتُحرِزُ الغنائمَ، حتّى زالت دولةُ الأكاسِرة.

وفي ذاتِ يومٍ منْ أواخرِ أيامِ خلافةِ الفاروق عمر رضيَ اللهُ عنهُ قدمَ إلى المدينةِ مَبعوثو سعدِ بنِ أبي وقّاص رضي الله عنه يُبَشّرونَ خليفةَ المسلمينَ بالفتحِ، ومعهم الغنائم ومن بينها سِوَارَا كِسْرَى، وهنا دعا الفاروقُ رضوانُ اللهِ عليه سُراقة بن مالك وألبسه سواري كسرى، وكان سراقة رجلاً كثير شعر السّاعدين، فقال عمر: بخ بخ، [كلمةٌ تُقالُ عندَ التّعَجُّبِ منَ الشيء] أعَيْرابيٌّ مِنْ بني مُدْلِجٍ يلبس سوارَيْ كسرى؟! ارفع يديْك، وقل: الحمد لله الّذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة الأعرابيّ.

ومما نقطفه من شجرة الهجرة، أن الركب المبارك مرَّ في طريقه بخيمة أم معبد، فيسألها النبي صلى الله عليه وسلم الطعام فتقول: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى والشاء عازب والسنة شهباء، ويلتفت عليه الصلاة والسلام وإذا شاة هزيلة في طرف الخيمة فيقول: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فتقول له: هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم.

قال: أتأذنين أن أحلبها. قالت: نعم إن رأيتَ بها حلبًا.

فدعا صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح على ضرعها ودعا فتفجرت العروق باللبن، فسقى المرأة وأصحابه ثم شرب صلى الله عليه وسلم، ثم حلب لها في الإناء وارتحل عنها.

وفي المساء يرجع أبو معبد إلى زوجته وهو يسوق أمامه أعنزه الهزيلة.

ويدخل الخيمة وإذا اللبن أمامه، فيتعجب ويقول: من أين لك هذا؟ فتقول له: إنه مَرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، فقال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد، قالت: رجُلٌ ظاهِرُ الوَضاءَةِ، أبلَجُ الوجهِ، حسَنُ الخَلْقِ، وَسيمٌ قَسيمٌ، في عينَيْهِ دَعَجٌ، وفي أشفارِهِ وَطَفٌ، وفي صوتِهِ صَحَلٌ، وفي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وفي لحيتِهِ كثافةٌ، أزَجُّ أقرَنُ، إنْ صمَتَ فعليهِ الوقارُ، وإنْ تكلَّمَ سَما وعلاهُ البهاءُ، أجملُ النَّاسِ وأبهاهُ من بَعيدٍ، وأحلاهُ وأحسنُهُ من قريبٍ، حُلْوُ المنطِقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذَرٌ، كأنَّ منطِقَهُ خَرَزاتٌ نُظِمْنَ يتحدَّرْنَ، غُصنٌ بَينَ غُصنَيْنِ، فهُوَ أنضرُ الثلاثةِ مَنظرًا وأحسنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقاءُ يحُفُّونَ بِهِ، إنْ قالَ أنصَتوا لقولِهِ، وإنْ أمَرَ تبادَروا إلى أمْرِهِ، مَحْفودٌ مَحْشُودٌ، لا عابسٌ ولا مُفنِدٌ، قالَ أبو مَعْبَدٍ: فهذا واللَّهِ صاحِبُ قريشٍ، ولقَدْ همَمْتُ أنْ أصحَبَهُ، ولَأفعَلَنَّ إنْ وجدتُ إلى ذلكَ سبيلًا.

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول وفي العام الرابع عشر من النبوة وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة سالمًا، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة مهمة في مسيرة الدعوة الإسلامية.